شخير كثيف ينحصر داخل غرفته ، يغدو بخاراً يلتحم بالريح الباردة في الخارج ، ليتحول على واجهة زجاج النافذة الى قطرات من الندى . . . بضعُ قطرات من الدموع المنهمرة على وجنتي امه المتغضنتين كانت تثير دهشته . . تُرى هل هي تحلم بموت أبي ؟ ام تراها تشعر ببرودة الوحدة ووحشتها ؟ ثم انها ومنذ مدة خلعت عنها ثياب الحداد ورمتها جانباً ! وهي ايضاً في بعض الاحايين تحيس وتتمايل أمام المرآة . . لماذا . . لا . . كلنا من ضحايا الوحدة . .» .

سبعة دنانير هي ايجار غرفته . بضع عوارض خشبية عوجاء مرصوفة رصفاً فوق لبنات من الطين . معظمها منخورة من مواضعها والبعض الأخر قد امتلأ بالشقوق من وسطه بفعل مداهمة السوس والأرضة . حيث تمسي خميرة مجموعة من الأحلام المليئة بالكوابيس المزعجة اثناء رقادات الليالي . . اشعال المصباح كان يدغدغ جناح الفراشة البيضاء القابعة فوق الجدار . والتي كانت تتعلق بخيط من خيوط الضوء راحت تتدلى . دندنة ذبابةٍ كانت تربكها ، شرعت بالدوران حول نفسها . . هو بدوره بدأ يبحث عن مصدر صوت الذبابة . كان حائراً . راح المصباح يتأرجح من جراء قوة دفع تيار الهواء من أجنحة الذبابة . .

في وقت من الأوقات ، كانت الوحدة جاعلة من نفسها قلادة تطوق عنقه الابيض الناصع . وكان الانتظار صرة مرمية في إحدى زوايا النسيان ، لكي تغدو فداءاً لعينيها الزرقاوين . لكن لحد الآن فما زال ذلك الفراغ الذي يصطخب فيه الكون مثل فقاعة ، يستحيل شكاً لايبين له أثر وسوف لن يملأه شيئ – اللهم – إلا اذا انتشلته يدُ الشيطان من هذا القبر الخرب . . ثم أن غرفته ليست هي الوحيدة التي تضيف بمن فيها حدّ الاعتصار ، حتى تأوى كل هؤلاء الناس البؤساء ، إذ أن معظم المدن مملوءة هي الأخرى لدرجة انك ينبغي ان تكون حذراً دوماً على ما في جيبك لئلا تفقد (جواز سفرك) أو يتعرض للنشل ، فتقع الطامة الكبرى وتبتلي . . .

عيناه لم تكونا لتريما عن منظر الذبابة ، والفراشة . . كانت الذبابة غارزة بجسدها في ظهر الفراشة ، فيما عدا صوت قعقعة من اجنحتها . . ، لم يكن ليصدر عنه حتى ولا نأمة من أنين . . . بمشقة بالغة كانت الفراشة تدفع بنفسها باتجاه النور . . رعشةٌ معربدة تصاعدت من إبهام يده ، منسحبة الى الاعلى ، تكور على نفسه عقد ذراعيه ، فطوق بهما ركبتيه . كابوس رعبٍ قاتل راح يقيم في غرفته طقوس عرسٍ .

الصقت الفراشة صدرها بزجاج المصباح . في حين كانت الذبابة تقرض – على عجل – اجنحتها . سُقاطاتها راحت تتراقص في مهب هواء الغرفة . كانت ممتطية ظهرها بأحكام لدرجة لا يكاد يتبين إلا القليل من لمعان لونها الابيض من تحت لون الذبابة الداكن الأسود . كان يشعر وكأن حسيس احتراق جسد الفراشة يثقب طبلتي اذنيه ، فيهمد في مكانه وينقطع عن الحركة . . .

راح يزداد احساساً وكأن الاحداث المرعبة التي مرت عليه طوال سنوات عمره ، تخضع – ثانية – امام عينيه لعملية مونتاج مثل فلم بوليسي . . أنشب انامله في موضوع الرأس من قلبه . . طنين الذبابة يختلط بضجيج الشخير كان يحبل رحم الغرفة . لم يتمالك نفسه . قلبه بدأ يتخافق ، انطلق خارجاً . .

كانت النجيمات المتفرقة تختنق خلل زرقة السماء الضبابية ، تذوب الواحدة تلو الاخرى .

«أما تخبرني ؟ كل هؤلاء المتشدقين المتزلفين من اصحاب الحناجر التي كل واحدة منها كانت تتسع لابتلاع ديك رومي على ضخامته ، وقت الامان ، اين هم الآن ؟ ولماذا كُمت افواههم هكذا ، وكأنها مختومة بقفل صندوق – أختر خان[1] – . . . ؟ .

– أجل . . . أليس من الجائز ، أن تهجرهم احضان زوجاتهم الوثيرة الدافئة . . ؟ ! .

– هل ترى من فارقٍ ، فيما بين غرفتك هذه ، وبين السجن . . ؟ !

- لماذا لا ؟ . . نعم . . نعم . . لا . . هو المعتقل . . !

- الفارق الوحيد هو . . ان صوت الاحذية الثقيلة لا يرن في ذنيك . .

- إن موتك وبقائك ، يتساقيان نخب بعضهما البعض خلال عقوس رقصته مشتركة لاحدى المقابر . .

- لكني ، أنا الواحد . . والامنيات بالآف . . .

- كيف يمكن لكل هذه الكائنات الحية المسلوبة ارادتها أن تأخذ مكان شيءٍ عظيم ؟ إذا هي تتدفأ - ليل نهار - في احضان النسيان . . ؟

- إنها سوف تموت مثل الحيوانات ، تنتفخ ، تتعفن . . . منذ قرون وأنا يعتصرني حجر دهر مشاكس متقلب ، على حَدَبٍ من مسامير رغبة دنسة . ما افكر فيه هو ميتة مطمئنة . ليس إلا ، اما الذي ابحث عنه فهو مقبرة معلومة . . دفقات الألم من قلبي المكلوم من أيام طفولتي ، مع كل لذعة ، تدب في دمائي دبيب النمال . حتى أبويّ فقد كانا في شغل شاغل عني في اطار حنانهما الأبوي ، حيث لم يكونا ليبدلا لحظة من متع الاحتضان على فراش الزوجية في لياليهما بالآف من قطرات الدموع الحبيسة الحائرة في محجري . يومَ مولدي ، غرست والدتي فسيلة من شجرة البلوط ، وسط باحة بيتنا . راحت تُسابق اعوام عمري ، تنافسها ، فتسامقت حتى ملأت فروع اغصانها سماء الحوش ، إلى ان دنت نهايتها في صيف قائظ . فاختلط رماد اوراقها المحترقة بأنقاض البيت . اما انا فكما تراني الآن اتحول يومياً عشرات المرات الى رماد سجائري اتذرى على موائد السكر ، والعربدة ، لأمسي سماداً لحدائق الحانات في ليلة من الليالي . . ربما يكون الدهر كابوساً مكبلاً بالقيود ، يجثم فوق صدري ، . سجناً كبيراً مُحاطاً بسياج حديدي . إن الكوارث الدامية تقوم بزيارة المساجين ، حاملةً اليهم هداياها من الجماجم المترعة بخمور الدماء . . من فرط اضطرابي ألوذ بتينك العينين اللتين دشنتا السكة الرفيعة لمسار حياتي ، كي تزيح إغفاءةً في حضنها الوثير عن جسدي التعب . . .» . . .

كان الناس يتحولون من خلال هالات اضوية المصابيح الى اشباح لصباحٍ باكر من صباحات ما بعد برودة فصل الخريف ، تنطبع على وجنة الشارع الملوثة بروث الحيوانات . مجموعةٌ من ذكور الكلاب ذوات العيون القادحة بالشهوة ، كانت تحاصر انثىً عجوزاً ، وقد كبسن رؤوسهن فيما بين افخاذهن . بعضها راح يرمق الغادي ، والرائح بنظرات شزراء ، ويصول . وكانت مطبقة على منتصف الزقاق .

اضطر أن يغير طريقه ، فأنسحب صوب جهة اخرى . . راح يأخذ بخناق كل من يصادفه ، يلح عليه كي يفسر له رؤياه . غير انهم ، وحال سماعهم لأول جملة ، يشهرون بوجهه ضجرهم ويديرون عليه ظهورهم بتذمرين .

ثمة حشرجة لهدير امواج مياه (خاصة)[٢] الكدراء ، كانت تربك صمت المدينة ، وسكونها . . . إن هذا النهر بالذات فثمة لجةٌ عليلة من لجج ربيع متأخر ، تلمسُ عادة ضفافه المتعفنة .

وإذ حاول اخر شخص أن يفسر له رؤياه ، رفع بوجهه قبضة غاضبة . .

لم يكن يعلم لماذا يثير حلمه هذا كل هذه العثث ، والسوس تحت فروة جلده . ليس لديه ثمة من مجال للالتفات نحو مصدر الضوضاء . انهم جماعات ، وزمرٌ ، يحثون الخطى . يغزلون خيوط الشارع ثم يلفونها لفاً . . كان ينتابه شعور وكأن أمواج النهر هي الاخرى تتشهى حكاية حلمه هو . . أرخى الزمام لعضلات مُخه . كان يستعيد بعض قواه ، حالما يبدأ بسرد تفاصيل رؤياه على بواطن نفسه وعلى جفول الموجات المشدوهه البلهاء لمياه - خاصة - . .

كانت قطرات من دموعه المنسابة ، تنتفخ فوق سطح الماء ، ومن ثم تتحدّر نحو الضفة . . . .

رؤيا القبو الأول :-

صريخٌ آتٍ من مكان لامرئي . استفزه - اخذ يتشبث بكل الامكنة . مقلتاه راحتا تنطلقان من محجريهما فتسبقان رؤيته . شرع يفتش الغرف واحدةً بعد الاخرى . كانت مملوءة بالتماثيل

الفضية ، والاصنام الذهبية ، وهي تسجد خاشعة لإمرأةٍ عارية امامها . وقد اعتصرت ناهديها عصراً قوياً . في حين كانت نواظرها ترنو عالياً . . كلها كانت مصنوعة بعناية ، وحرص شديدين . حتى كان يود لو يطفئ لهيب رغباته ولواعجه باحتضانها . . ثمة ضياء باهت مشوش كان يتهادى . يقبل ، ويدبر في تلك الانحاء ، ثم رويداً رويداً يزداد غموقاً . وكمثل طفل تستهويه السباحة ، فيرى الامواج وهي تلّوح له بنظرات حادة غاضبة . راح يشق غمار الضوء حذراً ، متمهلاً . شهقاتٌ ، وغمغمات مهتاجة كانت تمتزج هناك بندى الاشياء ، تتكاثف على شكل قطرات ، وتتصببُ على وجنة الارض ، مكونة بركة من العرق اللزج بارتفاع شبر .

كومةٌ من الاشياء المتناثرة المبعثرة . كانت تستقبل خطواته الوئيدة ، وهي تتراءى تارة وتختفي اخرى . عددٌ من اللوحات الملونة كان هامداً فوق ظهور الحيطان المرصعة باللآليء . . . المسيح . . يهوذا . . القديسون . . وفي داخل بعض الأطر ايضا . يُرى اسم – الله – محفوراً بلون ذهبي . جذوةٌ من نار موقد يقبعُ داخل صدر الحائط الذي على يمينه ، كانت تتوقد خلل رماد الجمرات ، بفعل نسمة باردة من الهواء . .

صوتٌ غاضب لامرئي ، اذهله . .

– من اتى بك ها هنا ؟ إن مَنْ يأتي الى هنا ، عليه ان يغسل خطاياه باللظى . . والأ فهو كلب نجس . . يطرد الملائكة ، ويشردها . . ! .

استحالت صحوته كابوساً ، راح يمتص رغباته قطرة قطرة . . يكاد قلبه أن يندلق من بين أضلاعه ، يتحول صوت دقاته الى الصفارات التي تطلقها السيارات لخداع الناس ، سكينةكانت تفور ، ترغي ، وتُزبد مثل آلة منصوبة ، تتفحص الغرف على عجل ، وكلها كانت متشابهة .

ثقل رأسه صير جسده في هشاشه ورق (المقوى) . . كل قدم منه كانت تُحصى على الاخرى خطواتها . . ثمة قبة مربعة الشكل ذات لون فضي كانت هي الاخرى ، تلتمع التماعاً . .

الصوت اللامرئي عاود ثانيةً :–

من يأتي هنا . . لايرى شيئاً ، سوى ارواحنا نحن . .

إنكم منبوذون . . !

كان منهمكاً في اعتصار مخه ، ليعلم ، منذ متى هو هنا ، والى متى سوف يبقى ؟ . . إنه يتميز بطقس مختلف ، المحاوير معلقة رأساً على العقب . . لاشيء هنا يهمه ، سوى أن يعثر على رأس الشليلة لتلك الطريق التي ارغمته على الوصول الى هنا . . لمراتٍ عديدة دأبت طبول الطرق الوعرة على جرجرته صوب الازقة المتعرجة ، ثم أن هذا الامعان في التفكير قد صار بدوره مثل كوكب الشعرى الكاذب يُلقي في طريقه الطُعم نحو شفير الفناء . .

إن البساط المفروش منسوج من الحرير ، وخيوط الذهب ، والطيقان المخفية ، محشورة بعدد من القناني المملوءة من ذوات الاعناق الطويلة ، عليها صورٌ لرجال نورانيين ذوى لحى بيضاء . ثمة اصواتٌ ، وهمسات ، ولهاثات لا حصر لها راحت تردم كل ما في ذلك المحيط من ثقوب وثغرات . أذناه كانتا تفصلان غضروف جمجمته ، فتلتصقان بالجدار الذي يستقر تحت الكوة .

ما يمتليء به القاعات ، والغرف من كائنات حية ومن جمادات كانت تتماوج في خضم عُتمة حالكة ، فيما عدا ذلك المصباح الاحمر المعلق فوق صورة تلك المرأة التي تتحضن بين ذراعيها رضيعاً وضيء المحيّا[٣] ، وديعاً ، عجولاً . . والذي كان يشتعل وينطفيء بصورة اوتوماتيكية ، فُيدخل الاشياء المزخرفة المزدانة بها المناضد الضخمة في حومة رقصة مميتة .

مرة اخرى إنبرى الصوت اللامرئي :

– إن هذا المكان هو بلاد الصادقين والمتقين . انتم المجبولون على الكذب ، سوف تقضون علينا . .

كان يغذ الخُطى . اخذت الهمسات ، والهمهمة ، تتحول إلى أنين مُتهيج ، يوقف شعرات رأسه . تصرُ عضلاته من جرائه صريراً . . . جهاته الاربع غدتْ بحراً من الظلمات ، أخذ يزداد كثافةً باستمرار ، سوى بصيص من النور مربع الشكل ، يفتح

جُرحاً في الحائط . .

اقترب من الكوة . زوبعة من زخرات حارقة انطلقت تداهم عارض وجهه «قوةٌ مطلسمة أو صلته الى مقربة من الكوة . . رأى في الداخل كومةً من لحوم ملساء ، ملتفة حول بعضها كالتفاف ديدان القز ، يرتمي بعضها فوق البعض الأخر ، وثمة اخريات يحاولن الولوج تحتها ، عرق بارد بدأ يتصبب من جسده . . لدرجة كانت خيوط حاجبيه تأبى الحفاظ على مقلتيه ، سُعلة بقدر حجم دعبلة اخذت تخنق لهاثه ، تستبقيه المرة بعد المرة . . أثوابٌ نسائية كثيرة كانت مركومة ، عدد من المعاطف الرقيقة البيضاء معلقة ايضاً على جدار تلك الغرفة السرية . . تتحرك ببطء شديد ، كان يجهل لماذا تعتصر هذه الكومة من اللحم بعضها بعضها ، بعضها كان يتهالك ، ومن ثم يرقد على الارض مرتخي دون حراك . . نظراته راحت تثقب واجهة الكوة المزججة . . وعلى حين غرة انتفخت الغرفة بصرخة مبحوحة صعقتْ فؤاده من خلال شقوق الزجاجات . طوى العتمة رعبٌ مدمى . فاكتسح هو ايضا معها . . بدأت كومة اللحم تتفتتْ الى قطع من تلقاء نفسها ، تدبُ فيها الحياة ، ثم تعود لتنتصب واقفة . وعلى شكل صفين متراصين احتلت الغرفة من اقصاها الى اقصاها . لفرط ارتباكه ، لم يتذكر متى اصبح صوت سُعلته سبباً في اثارة كل هذه البلبلة ، أم كانت صرخة جنسية تفرقع في جوفه . . كانوا وجوه ناظرة ، ريّا ، واجساد مكتنزة بضة ، كأن ريشة فنان – رومانسي – ابدعتها ، ناهيك من بشرتهن ، فلقد كانت على درجة من البياض ، والصفاء بحيث تخطف من الابصار بريقها . .

بهلعٍ وخوف ، وبقلوب واجفة كن يحشرنَ اثداءهن النافرات بين طيات كتاب ضخم – أشبه بكتب سماوية – وكل واحدة منهن ايضاً على نحرها صليب مذهب يرتشف كأس السعادة . .

ثلاثة عمالقة ذوي لحى طويلة ، كل واحد منهم وكأنه يمشي على جذعين من الشجر ، انتصبوا واقفين بخجل وسط الغرفة . شكك في وجوده . تفحص ارجاء الغرفة على عجل لم يكن يرى أي باب ، عدا كوىً مزججة كبيرة . . امتزج باللاوعي . كان يتمشى بتأثير دغدغة من دنين[٤] اغنية . اخذ يصيخ السمع . راحت يدٌ سحرية تنتزع من جسمه ، ما ارتداه من ثياب قطعة قطعة .

شرع يرتجف . كلما لامس بيده جسده . اثار نشيشاً بارداً من لحمه الخائر . قلبه لم يكنْ ليطاوعه في أنه هو ايضاً مثل هؤلاء يذوب . وأن نفس النظام بالذات هو الذي سوف يضعه داخل قفص الاتهام . . لبضع ثوانٍ اغمض جفونه . وإذ اعاد فتحها . رأى النساء العاريات وهن يمرغن انفسهن بجسده الزاغب ، ويعتصرنه ، ويدفعن به صوب مكان مجهول . .

رؤيا القبو الثاني :

ساعة قديمة ، صدئة ، معلقة في احدى الزوايا ، تلتمع ارقامها واحداً واحداً كعيون القطط . أما عقرب الساعة فقد كان متمدداً فوق رقم –٤– .

لم يكن يدري كيف فغرت ثغرة كبيرة في الارض القبو الأول فاها ، فأبتلعته فجأة واكتسحته الى هذا القبو ، مدحرجة اياه من خلال النفق . .

وإن هذا (النفق) بالذات هو الذي يربط كل هذه الاحداث المحزنة لهذين القبوين ببعضها .

براثن الخوف كانت تدفع به ، تنخسه بمهازها ، تُلجمه ، حرارة حشرجة كانت تهد ركبته هداً . ايماضات النور خلل صدع الحائط الاخرى كانت تميط اللثام شيئاً فشيئاً عن وجه القبو . اختلط عليه الليل بالنهار . . انطفاء النور واشتعاله من خلال الشق كان يزفان إليه بشرى الغروب والشروق . . خلال مكوثه هناك ، اضاء الصدعُ وانطفأ ثلاث مرات او اربعاً ، وكان النور مختبئاً تماماً . جسده ذاب مع الظلمة . .

اصابعه راحت تغوص في ثنايا جلده اللدن . زبدُ الجوع كان يتقطر من شدقيه . التفت ثانية ناحية الساعة . كان العقرب القصير يُسرع باتجاه الرقم الأخير . يلتمع التماعاً . . صوت

مصمصة كرشه وملجها[٥] كان يسرج صوت انفاسه .

خشخشة تخديش مخالبه على الحيطان راحت تقضم جسده . تُطبق اسنانه على بعضها . اخذ يجتر التراب ويمضغه مثل دودة الارض . . شاشةُ حزمة من الضوء خلل كوة كانت تعتصر مقلتيه . اخذ نفساً عميقاً ، راح يعيد الى عضلاته صلابتها . كانت الصور تتصارع امام ناظريه . تأخذ وضعية الاستعداد دونمارتوش او زخرفة . كل واحدة كانت تؤدي دورها على نوجه الامثل . . كان ، وكأنه النفير العام . تُرى هل هو هرج ومرج . . ؟ أم كان يوم الحشر ، ولم يكن هو على علم به . . ! بعضهم بملابس بيضاء متناسقة كان يداهم الناس ، نساءاً ورجالاً واطفالاً ويقبض عليهم وثمة مارد عريض المنكبين ايضاً ، كان منكبساً داخل كرسي ، يحمل بيمناه مجهراً يتلألأ تحت ضوء الشمس . من يؤتى به امامه كان يمرر المجهر على سيمائه ، ثم يلوح بأصبعه الى اتباعه فيسلخون جلده في الحال ، ومن كان لون جلده ينال الرضاو القبول من لدن المارد ، يُعتبر في عداد المخطوظين ، فينطلق ضاحكاً . اما القسم الاعظم فقد كان يبتلي ويلقي مصرّعه .

بعد ذلك توضع في اعناقهم الأرسان[٦] ويختفون عن انظاره . . ثم كانوا جماعاتٍ ، جماعات ، يقيمونهم صفوفاً ويقذفون بهم في حفرة معدة وهم احياء . . حتى انه شاهد بأم عينيه والدته ايضاً وهم يسلخون جلدها من فروة راسها لغاية ركبتيها . .

اصطخاب الامواج ، اعاده الى وعيه . اشعة الشمس كانت تكدر باصرتيه . وعلى حين غرّة ، اوثقه شبحان من يديه من الخلف ، ثم شرعا يطوفان به في الشوارع . . .

الهوامش

١ - صندوق اخترخان / صندوق كبير من الفولاذ ، او قد يكون صندوق خرافي .
٢ - خاصة : اسم النهر الذي يشق وسط مدينة كركوك
٣ - يقصد بها العذراء ويسوع . .
٤ - دنين : دن الرجل دنيناً : نغم ، ودندن الذباب : طن وصوت .
٥ - ملجَ : الصبيُ امه : تناول بادنى فه فرضعها : وامتلج مافي الثدي : امتص .
٦ - الارسان : جمع رسن : الحبل الذي يوضع في عنق الدابة .
× - هذه القصة منشورة في العدد (٥٩) أيار وحزيران ١٩٨٠ لمجلة شمس كردستان . . .

سيابند و خجوك

بين الاشجار الوارفة الظلال التي تكسو جبال كردستان ، ثمة شبحان يخطوان مسرعين غير مباليين بوعورة الطريق واشواكه الشائكة ، بين الوهاد والروابي الخضر ، كأنما يستديران في سيرهما ماضياً يحثان الخطى في الانفلات منه ، حيث يغذان السير الى غاية يتلمسانها أمامهما . . . !

انهما عاشقان هاربان بقلبيهما من غدر وجود الانسان ، يبحثان في ارض الله الواسعة عن ارض لم تدنسها يد الظلم كي يقيمان من فوقها عشهما الامن السعيد ، وهما يسيران في بطون ووديان تلك الجبال الشاهقة منذ سبعة ايام . لا يحفلان بتعب الرحلة الصعبة . لأن السعادة تلوح لهما من بعيد . ولا يحسان بطول الطريق – الهدف لأن الحب قد ملأ لهما الفضاء الواسع بالأنس .

ولم يحس احدهما بالأعياء الا عندما انتهى بهما السير وسط بعض الوهاد الى عين مياه صافية ينبع من جانب صخرة راسية ضخمة ، حيث تنحدر منها شلالات المياه الرقراقة في اندفاع صاخب الى اسفل الوادي العميق .

هناك وقف كل من سيابند وخجوك لحظات سارة ، يتأملان روعة المنظر الخلاب ، وينصتان الى الصدى الهائل لخرير المياه منبعثاً من بطن الوادي الكبير وشتى انحائه ، وهناك احس كل منهما بالارهاق الشديد يسري في اطرافه ، فقصدا الى اقرب شجرة ظليلة اليهما ، وتمددا في ظلها يستريحان من تعب سيرهما الطويل . . .

وتقاذفتهما في مجلسهما ذاك احلام من الامال والاماني اللذيذة في احاديث شيقة تناقلتها عنهما النسيمات العطرة ممتزجاً مع تلك الانغام الجميلة المنبعثة من مياه الوديان وحفيف اشجارها وتغريد بلابلها . . .